

سورة الكهف: الآيات: 84 - 82

22

٢٢

أهداف الدرس

- 1- أن أتعرف قصة ذي القرنين من خلال آيات القرآن الكريم.
- 2- أن أدرك عظم ما أعطاه الله لذي القرنين من الملك الواسع.
- 3- أن أتمثل قيمة العدل التي كانت أساس ملك ذي القرنين.

تمهيد

بعد أن انتهت الآيات السابقة من سرد تفاصيل قصة الخضر وموسى عليهما السلام، انتقلت الآيات الآتية إلى سرد قصة أخرى هي قصة ذي القرنين، جواباً عن أحد الأسئلة الثلاثة المتقدمة في أول السورة.

فمن هو ذو القرنين؟ وبم وصفته الآيات؟ وماذا وجد عند وصوله إلى مغرب الشمس؟

الآيات

قال الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْفَرِّقَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ۚ إِنَّا مَكِّنَّا لَهُ فِي إِيلَازِهِ ذِكْرًا مِّنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبِّحًا ۚ ﴿٨٣﴾ بِاتَّبَعَتْ سَبِيلًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ۖ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا ۚ فَلَمَّا يَلَا الْفَرِّقَيْنِ ۖ إِنَّمَا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِنَّمَا أَنْ تَخْتَدَّ بِإِيعَازٍ ۖ ﴿٨٤﴾﴾ [الكهف: 82 - 84].

الفهم

الشرح:

سَأْتَلُوا: سأقص وأقرأ.

مَكَّنَالَهُ: أعطيناه مكانة ومنزلة مكيمة.

اتَّبَعَ: سلك.

مَغْرِبِ الشَّمْسِ: مغيبها وجهة غروبها.

حُسْنًا: إحسانا وعفوا.

استخلاص مضامين الآيات:

1- بم وصفت الآيات ذا القرنين؟

2- ما الذي أعطاه الله لذي القرنين؟

3- ماذا وجد ذو القرنين عند العين الحمئة؟

التفسير

اشتملت هذه الآيات على بداية قصة ذي القرنين كما يأتي:

أولاً: السؤال عن ذي القرنين، وجواب الوحي:

قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْفَرْتَقِ فَلْأَنبِئْهُمْ بِمَا هُوَ قِصَّةٌ مِّنَ الْقَصَصِ الْمَكْثُورَةِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ، وَهَذِهِ الْآيَاتُ وَرَدَتْ فِي سِيَاقِ الْجَوَابِ لِمَشْرُكِ قَرِيشٍ عَلَى إِحْدَى الْمَسَائِلِ الثَّلَاثِ الَّتِي تَقْدُمُ ذِكْرَهَا: سَأَلَهُمُ عَنِ الرُّوحِ كَمَا هُوَ مَذْكُورٌ فِي آخِرِ سُورَةِ الْإِسْرَاءِ، وَعَنْ قِصَّةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ كَمَا سَرَدَهَا اللَّهُ تَعَالَى فِي أَوَّلِ السُّورَةِ، ثُمَّ عَنْ رَجُلٍ أَتَى مَشَارِقَ الشَّمْسِ وَمَغَارِبَهَا مَا قِصَّتُهُ؟ فَأَجَابَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ بِمَا بَقِيَ يَتْلَى فِيهِ وَتَنْتَفِعُ الْأُمَّةُ بِتِلَاوَتِهِ وَأَخَذَ الْعِبْرَ مِنْهُ كَغَيْرِهِ مِنْ قِصَصِ الْقُرْآنِ الَّتِي قَصَّهَا اللَّهُ تَعَالَى عَلَى رَسُولِهِ تَأْنِيصًا لَهُ وَتَسْلِيَةً عَمَّا يَلْقَاهُ مِنْ قَوْمِهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْقَرْيَةِ﴾ هو كقوله في الإسراء: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ [الإسراء: 85] ولم يذكر معهما ﴿وَإِنَّ﴾ التي جرى التصدير بها في قصص سابقة كما تقدم في قوله: ﴿وَإِنَّ قَالِ مُوسَىٰ لِبِقْتِيلَ﴾ وقوله: ﴿وَإِنَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا﴾، وفيها إضمار السائلين؛ لأن الغرض إنما يتعلق بالمسؤول عنه لا بالسائل.

وذكر في سبب تلقينه بذى القرنين أقوال أحسنها أنه كان ذا ضفيرتين من شعر هما قرناه، فسمي بهما، والصفائر قرون الرأس.

وقوله: ﴿فَلَسَأْتَلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾، الخطاب في ﴿عَلَيْكُمْ﴾ للسائلين. وقوله: ﴿ذِكْرًا﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يُرِيدَ قُرْآنًا، وَأَنْ يُرِيدَ حَدِيثًا وَخَبْرًا.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ والتمكين له في الأرض أنه ملك الدنيا، ودانت له الملوك كلها. وَقِيلَ تَمَكِينُهُ فِي الْأَرْضِ بِالنُّبُوَّةِ وَإِجْرَاءِ الْمُعْجَزَاتِ. وَقِيلَ: بِكَثْرَةِ أَعْوَانِهِ وَجُنُودِهِ وَالْهَيْبَةِ وَالْوَقَارِ وَقَذْفِ الرُّعْبِ فِي أَعْدَائِهِ وَتَسْهِيلِ السَّيْرِ عَلَيْهِ وَتَعْرِيفِهِ فَجَاجَ الْأَرْضِ وَاسْتِيْلَائِهِ عَلَى بَرِّهَا وَبَحْرِهَا.

قال أبو حيان: «وَهَذَا الَّذِي بَلَغَهُ مُلْكُ هَذَا الرَّجُلِ هُوَ نِهَآيَةُ الْمَعْمُورِ مِنَ الْأَرْضِ، وَمِثْلُ هَذَا الْمُلْكِ الْبَسِيطِ - الواسع - لَا شَكَّ أَنَّهُ عَلَى خِلَافِ الْعَادَاتِ، وَمَا كَانَ كَذَلِكَ وَجَبَ أَنْ يَبْقَى ذِكْرُهُ مُخَلَّدًا عَلَى وَجْهِ الدَّهْرِ، وَأَنْ لَا يَكُونَ مُخْتَفِيًا». [البحر المحيط: 7 / 219 - 220].

وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾، السَّبَبُ مَا يَتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى الْمَقْصُودِ مِنْ عِلْمٍ أَوْ قُدْرَةٍ أَوْ آلَةٍ. وَأَصْلُ السَّبَبِ الْحَبْلُ، ثُمَّ تَوَسَّعَ فِيهِ حَتَّى صَارَ يُطْلَقُ عَلَى مَا يَتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى الْمَقْصُودِ. وقوله: ﴿وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾، معناه: علما في كل أمر، وأقيسة يتوصل بها إلى معرفة الأشياء. وقوله: ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ عموم مخصوص، فإن المعنى يقضي بأنه إنما آتاه الله ما قدر له من أسباب التمكين، وليس المراد: آتاه من كل موجود وما يصدق عليه اسم شيء، وإنما هو كقوله عن الريح التي أهلك بها قوم عاد: ﴿تَذِمُّ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: 24] وهي لم تدمر إلا ما أراد الله تعالى.

ثانياً: بلوغ ذي القرنين مغرب الشمس:

قال تعالى: ﴿فَاتَّبَعْ سَبِيلَ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْرٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا ۖ﴾، قرأ الكوفيون وابنُ عامرٍ «فَاتَّبَعْ» في مواضعها الثلاثة في هذه السورة بقطع الهمزة وتخفيفِ التاء ساكنة، وقرأ باقي السبعة ﴿فَاتَّبَعْ﴾ بهمزة الوصل وتشديدِ التاء. قيل: إنَّهما بِمَعْنَى وَاحِدٍ. وقيل: إنَّه بقطع الهمزة عبارة عن المُجْدِّ المُسْرِعِ الحَثِيثِ الطَّلَبِ، وبوصلها إنَّما يَتَضَمَّنُ الإِقْتِفَاءَ دُونَ هَذِهِ الصِّفَاتِ. والسَّبَبُ في هذه الآية: الطريق المسلوكة؛ لأنها سبب للوصول إلى المقصد.

وقوله: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْرٍ حَمِئَةٍ﴾، قرأ نافعٌ وابنُ كثيرٍ وأبو عمرو وحفصٌ عن عاصمٍ ﴿حَمِئَةٍ﴾ بغير ألفٍ بعدِ الحاءِ وبهمزةٍ مفتوحةٍ بعدِ الميمِ المكسورة، وقرأ ابنُ عامرٍ وحَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ وَشُعْبَةُ عَنْ عَاصِمٍ «حَامِيَةٍ» بِألفٍ بعدِ الحاءِ وَيَاءٍ مَفْتُوحَةٍ بعدِ الميمِ المكسورة عَلَى وزن اسمِ الْفَاعِلِ. ومعنى الْقِرَاءَةِ الْأُولَى ﴿حَمِئَةٍ﴾: ذَاتُ حَمَاءٍ وَهِيَ الطَّيْنُ الْأَسْوَدُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر: 26] ومعنى الْقِرَاءَةِ الثَّانِيَةِ «حَامِيَةٍ»: أَنَّ الْعَيْنَ حَارَّةٌ. وذهب الطبري إلى الجمع بين التفسيرين، بأنه يحتملُ أن تكون العين حارَّةً ذَاتَ حَمَاءٍ. [جامع البيان: 15 / 377]. وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ «حَامِيَةٍ» مَهْمُوزَةً الْأَصْلَ، بِمَعْنَى ذَاتِ حَمَاءٍ لِيُنْتِ هَمْزَتَهَا بِإِدْغَامِ يَاءٍ لَانْكَسَارِ مَا قَبْلَهَا، فَتَكُونُ الْقِرَاءَتَانِ بِمَعْنَى وَاحِدٍ.

قال أبو حيان رحمه الله: «وَمَعْنَى ﴿تَغْرُبُ فِي عَيْرٍ﴾ أَي: فِيمَا تَرَى الْعَيْنُ، لَا أَنَّ ذَلِكَ حَقِيقَةٌ، كَمَا نَشَاهِدُهَا فِي الْأَرْضِ الْمَلْسَاءِ كَأَنَّهَا تَدْخُلُ فِي الْأَرْضِ». [البحر المحيط: 7 / 221].

وقوله: ﴿وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا ۖ﴾، الضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿عِنْدَهَا﴾ عَائِدٌ إِمَّا إِلَى الشَّمْسِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَمَّا تَخَيَّلَ أَنَّ الشَّمْسَ تَغْرُبُ هُنَاكَ كَانَ سُكَّانُ هَذَا الْمَوْضِعِ كَأَنَّهُمْ سَكَنُوا بِالْقُرْبِ مِنَ الشَّمْسِ. وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ الضَّمِيرُ عَائِدًا إِلَى الْعَيْنِ الْحَمِيَّةِ، وَعَلَى هَذَا الْقَوْلِ فَالْمَعْنَى: وَجَدَ عِنْدَ تِلْكَ الْعَيْنِ الْحَمِيَّةِ قَوْمًا مِنْ سُكَّانِ هَذِهِ النَّاحِيَةِ الَّتِي تَغْرُبُ عَلَيْهَا الشَّمْسُ وَرَاءَ الْأَفْقِ، وَتَغِيبُ عَنِ الْأَرْضِ الَّتِي هُمْ فِيهَا، وَأَنَّهَا لَيْسَتْ بِبَابَا مَقْفَرَةٍ خَالِيَةٍ مَهْجُورَةٍ مِنَ السَّكَّانِ.

وقوله تعالى: ﴿فَلَنُجِزِيَ الْفَظِيرَ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ۖ﴾ واختلف في ذي القرنين، فقيل: هو نبي، وهذا ضعيف، وقيل: هو ملك - بفتح اللام -، وقيل: هو عبد ملك - بكسر

اللام - صالح نصح الله فأيده، والله أعلم.

وقوله: ﴿إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ بِهِمْ حُسْنًا﴾، أي: ﴿إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ﴾ من يستحق ذلك، ﴿وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ بِهِمْ حُسْنًا﴾ أي: بالإقرار على الإيمان واتباع الهدى، فكأنه قيل له: لا تعظم إلا إحدى خطتين: إما العذاب لمن يستحقه، وإما أن يؤمنوا فتحسن إليهم.

ومحل «أن» مع صلته إما الرفع على الابتداء، أو على الخبر، وإما النصب على المفعولية، والتقدير: إما تعذيبك واقع، أو إما أمرك تعذيبك، أو إما تفعل أو توقع تعذيبك، وهكذا الحال في الاتخاذ الوارد بعده.

ثالثا: لطائف وفوائد:

- تقدير قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ بِهِمْ حُسْنًا﴾: أمرا ذا حسن، على حذف المضاف أو على طريقة الوصف بالمصدر للمبالغة؛ لأن الوصف بالمصدر أبلغ من الوصف بالصفة، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا فِرْعَانَ نَبَاً كَبِيراً﴾ [الجن: 1] وقوله: ﴿وَجَاءَ وَعَلَىٰ فَمِيسِرِهِ، بِدَمِيرٍ كَذِبٍ﴾ [يوسف: 18].

- نقل القرطبي عن الإمام أبي بكر القفال (ت 365 هـ) قال: «قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: لَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّهُ - أي ذا القرنين - انتهى إلى الشمس مغربا ومشرقاً حتى وصل إلى جرمها ومسها؛ لأنها تدور مع السماء حَوْلَ الْأَرْضِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَلْتَصِقَ بِالْأَرْضِ، وَهِيَ أَكْبَرُ مِنْ أَنْ تَدْخُلَ فِي عَيْنٍ مِنْ عُيُونِ الْأَرْضِ، بَلْ هِيَ أَكْبَرُ مِنَ الْأَرْضِ أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً، بَلِ الْمُرَادُ أَنَّهُ انْتَهَى إِلَى آخِرِ الْعِمَارَةِ مِنْ جِهَةِ الْمَغْرِبِ وَمِنْ جِهَةِ الْمَشْرِقِ، فَوَجَدَهَا فِي رَأْيِ الْعَيْنِ تَغْرُبُ فِي عَيْنِ حَمِيَّةٍ، كَمَا أَنَّا نَشَاهِدُهَا فِي الْأَرْضِ الْمَلْسَاءِ كَأَنَّهَا تَدْخُلُ فِي الْأَرْضِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَجَدَهَا تَكْضَعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا﴾، وَلَمْ يُرِدْ أَنَّهَا تَطْلُعُ عَلَيْهِمْ بِأَنْ تُمَاسَّهُمْ وَتَلَاصِقَهُمْ، بَلْ أَرَادَ أَنَّهُمْ أَوَّلَ مَنْ تَطْلُعُ عَلَيْهِمْ». [الجامع لأحكام القرآن: 6 / 34].

التقويم

- 1- ما معنى قوله تعالى: «وجدها تغرب في عين حمئة»؟
- 2- ما معنى قوله تعالى: ﴿وَعَاتَيْنَاهُ مِنْكُمْ شَرْعًا سَبِيًّا﴾؟ وكيف توجهه أصولياً؟
- 3- ما القراءات الواردة في قوله: ﴿حَمِيَّةٌ﴾؟ وما المعنى على كل قراءة؟
- 4- إلى من أسند الله التمكين والإيتاء في قوله: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْكُمْ شَرْعًا سَبِيًّا﴾؟ وما الدرس المستفاد من ذلك؟

الاستثمار

قال أبو حامد الغزالي رحمه الله: «...فليس للعبد قدرة إلا بتمكين مولاه، كما قال في أعظم ملوك الأرض ذي القرنين، إذ قال: ﴿مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾، فلم يكن جميع ملكه وسلطنته إلا بتمكين الله تعالى إياه في جزء من الأرض، والأرض كلها مدرة (قطعة طين يابس)، بالإضافة إلى أجسام العالم، وجميع الولايات التي يحظى بها الناس من الأرض غيرة من تلك المدرة ثم تلك الغيرة أيضاً من فضل الله تعالى وتمكينه... فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، فهو الجبار القاهر والعليم القادر، السموات مطويات بيمينه، والأرض وملكها وما عليها في قبضته، وناصية جميع المخلوقات في قبضة قدرته». [إحياء علوم الدين: 4 / 304 - 305].

أتأمل النص أعلاه وأجيب عن الأسئلة الآتية:

- 1- ما الصفة الإلهية التي يقررها النص؟
- 2- ما مناسبة ذكر النص لملك ذي القرنين؟
- 3- ما واجب العبد تجاه هذه الصفة الإلهية؟

الإعداد القبلي

أراجع تفسير الآيات: 85 - 91 من سورة الكهف وأجيب عن الآتي:

- 1- ما القراءات الواردة في قوله: ﴿جَزَاءُ الْحَسَنَى﴾؟ وما إعراب كل قراءة؟
- 2- من هم ياجوج وماجوج؟ وبماذا وصفوا في هذه الآيات؟
- 3- ما المراد بالكلمات الآتية: نُكْرًا - سِتْرًا - السَّدِّي - خَرْجًا - رَمْمًا؟